

أنا جسدي

كتابة: هناء جعفر



سأحاول أن أرى ، هنا ، عبر الحروف ، عبر ما لن يتأكد لي صحته ، هل لي أن أنظر داخلي -كذبًا- أو خارجي- تصويريًا- وأتأكد من فراغ فرويدي صائب ، مُتَكَسَّب ؟ هل لي أن أستعيد الإحساس السليم للسؤال عن ماهية جسدي- أنا ، وليس حول ماهية الجسد؟ ها هنا أنا امرأة ، أنظر إلى الضائع مني ، أعرفه ليعرفني ، سأجاوره لانقضى عليه ، نعم وبقوة ، لأن التأريخ ، بمعنى التواجد في سيرورة التاريخ ، وليس التاريخ الزائف ، هو ما يجعلني متأكدة.

من هنا ، عالجتُ جسدي ، بطريقة فذة. طريقة تخصني. تخصُ جسدي. تعالوا ، أريكم ، ما الذي يمكن أن أدونه.

هل نتلامس؟

أريدُ التساؤل ، مع شخصٍ ، لن يُقدم معلومة. أبحثُ عن تواصلٍ حميمي. عن رحلة ، صُحبة جسدي. معها وبها. عن الهرب ، من التاريخ (بالحرف الكبير) ، نحو جسدي. عن البركة معها.

عن التوهج...

في طريقٍ ما ، بطريقة ما ، كان أن التقيتُ جسدي.... على هذا النحو من الجاز.. كان الدقُّ ، والدقُّ المتزايد ، قد امتحن جسدي. وجدّثني أرقص. وجدّثني أنظر إليّ أنا. من أنا؟ هنا ، يبدأ التأكيد العبثي. كيف لي أن أضمن ملامسةً نقيّةً لجسدي؟ لن. يا للحظ. لكن هنالك ممرّاتٍ أُخر. دروب متلوّنة ، تبقى هي الضامن الأوحد لهذه البركة. وأعني هنا ، إصدار همهمات ، غواءات قصيرة ، من مواقع مختلفة في تاريخ جسدي. ما يشبه تأريخ قطاعات مُستعرضة عديدة. حينها فقط يُمكنني أن أكتب اسم جسدي بالحرف الكبير ، الجسد ؛ لأن الأنا هنا ، هي أنا المرأة ، بعد أن كتبت تاريخها الإثباتي كذات تعبيرية ، كتجميع.

منذ تلكم السنوات -هل تتذكرني جسدي؟- تعلمُ أنها كانت معركة. كانت المعارك التي خضتها ، من أجلك. هنا سأتوقف لتأنيث الجسد. الجسد الذكوري اللغوي ، ملغى هنا. منذ هذه اللحظة الجسدية ، صارت الجسد أنثي. وقد كانت مندها ، مخاوفي مصدرها جسدي. كثيرة هي المعارك التي خضتها من أجلها. ولكن ، ها هي معركة أخافها. صديقتي الجميلة الشابة ، والتي عانت فجأة من شلل رباعي ، أصاب العائلة والأصدقاء بالحنن. لكن ما أصابني لدى رؤيتها لم يكن مجرد الحزن فقط ، جزعتُ ، تخيلتُ أنها أنا. ولو أُتيحت لي ، وأنا مشلولةٌ تمامًا ، مقيدةٌ بذلك السرير البارد ، القاسي ، لو أُتيحت لي فرصة أن أقول كلمة واحدة ، لقلت «اقتلوني.» مفرغٌ أن تُجبر على مشاهدة موتك كل لحظة ، لا تقدر على الصراخ طلبًا للرحمة ، أو أن ترفع يدك لتشير إلى ما تريد. لم يبارحني هذا الخوف يومًا. أنا عاشقةُ السرعة ، اللامبالية ، المُحبّةُ للمغامرة ، قيّدتُ كل ذلك على حافة خوفي من فقدان جسدي. لم يخفني الموت يوما ، ولكن أن أحياء! أرجوكم!!

لن نخسر سوى أغلالنا.....

في ثنائية «رجل/امرأة»، المُتخيلة والأزلية، أخذت المرأة المرتبة الأدنى دوماً. ومثل الجسد، كانت هي الأضعف. ما واجهته النساء في مسيرتهن الطويلة نحو التحرر، والانعتاق، من الأدوار الاجتماعية، التي تضعهن في موضع التابع، والناقص، هي بحق وحقيقة، تاريخ الجنس البشري. فقد واجهت أجسادهن العنف المادي والرمزي، ومصادرة الحريات، الوصاية، وأساليب العقاب، الأعراف والتقاليد، الدين والمشادات. الأجساد ضُغِطت وضُطِبت وسُتِرت، حيناً بدعوى الجمال، وحيناً آخر بدعوى الأخلاق. لُفَّ الخصر ليصبح أكثر دقة، وألبس أحذية خشبية لأقدام أصغر، ولُفَّت الأعناق لتصبح أطول، وأعيدت هندسة (مناطق العَقَّة). ثم تطور العلم، فاستعضنا عن تعب سنوات طويلة في نحت الأجساد، ببضعة ساعات في عيادات التجميل، وبعض وخزات حقن البوتوكس. وجاؤوا باسم الدين، وطالبونا بالاحتشام. ولضرورته وجلالته تم نص القوانين، وأقيمت ونُصبت المحاكم، وجاؤوا بالسياسات والجلادين.

احتلَّ موضوع جسد المرأة حيزاً كبيراً في المجتمعات الدينية والمحافظه. ولكن يالبؤس الحيز! إذ تمَّ النظر إليها كأنها عورة وعيب، يجب سترها وتغطيتها، بل المراقبة الصارمة لكل حركاتها، من طريقة الجلوس والتحرك والوقوف والاستلقاء، إلى الكلام ونظرة العين وحركات الأصابع. من هنا، قام كل مجتمع بوضع مجموع ضوابطه للجسد، بل المبالغة في حملهن (الأجساد) على المحافظة عليها (الضوابط)؛ فألغت هذه المجتمعات الكثير من الحريات الطبيعية، وضيقت على أخرى. حتى وصلت مرحلة أن قُنَّت العنف تجاه المرأة، بمحاكمها التي تفرض على النساء الانضباط عبر تقنيته: (الأمر) لبس الطرحة، أو الملابس الفضفاضة، و/ أو (المنع) ارتداء البنطلون. أما المُخالفات فتُعاقبهن بالجلد، أي بالوسم على الجسد. الجلد هو العقوبة الأكثر امتهانا للإنسانية أبداً. وفي النهاية تقوم بتحويلها إلى مجرد جسد، مُغَطَّى، مُراقب، مُخَبَّأ، بدعوى الدين والأخلاق. جسد خائف، غير حر، خانع، مفعولٌ به اجتماعياً. كامل الشفقة.

أن نعيشَ الرعبَ من العقاب، سواء العقاب القانوني أم الأسري، من الختان وتشريع زواج القاصرات، من التحرش ولوم الضحية، من نظرات وسياسات المجتمع- الغول- في كل حركة جسد نأثيها، كل ذلك يندرج تحت مُسمى يجعلنا نكره تلك الجسد، أو، على أقل تقدير، نفقد حميميةً، وحباً، مطلوبين بين الذات والجسد.

أنتجت كل تلك القيود جسداً مكبلةً، غير حرّة، في تعاطيها مع المجتمع، بالضرورة، وحتى في تعاطيها مع الذات، في النظر إليها كشيء غامض، بعيدة، لا تستدعي سوى الخجل. فتُصيح علاقتنا بالمناطق الجنسية في أجسادنا علاقة تقوم على الرعب. مجرد التفكير فيها يجعلنا نحس باللاطهرانية، بتقل كل النواهي والمحاذير التربوية، بوعيد العقاب الديني والأخروي.

حُسِّس العقل داخل الجسد، وحُيِّست الجسد داخل الخوف والخنوع. لذا علينا ابتداء مفاهيمنا الخاصة، طرق هربنا الأكثر فردية وفرادة، ألا نترك الصراع دون أن نقاوم، أن نناضل، أن نتحصن، وأن نملك

القدرة والاقترار على مواجهة جميع أشكال القمع. وذلك لن يتم سوى بإدراكنا العميق لأجسادنا ، والالتقاء بها ، وبالتالي النظر إليها بعين المحبة ، وإعلائها..

أجسادنا أرضٌ داخل الأرض ، قبيلة القبائل ، تجميعة تمتلك خطاباتها السياسيّة والاجتماعيّة ، مُنتج ثوري ومقاوم. ولو شئنا الدقة سنقول مع سبينوزا أنها خريطة تُفهم فقط بعبارات خطوط الطول وخطوط العرض..

«إن الجسد السليم ، يتكلم بكل إخلاصٍ وبكل صفاء ، فهو كالدعامة المربعة من الرأس حتى القدم ، وليس بيانه إلا إفصاحا ، عن معنى الأرض. ما الجسد إلا مجموعة الآت مؤتلفة للعقل. إن ما يجب أن أؤمن به يجب أن يكون راقصا.» (نيتشة)

الرقصُ، فعل مقاومة

في دراسةٍ للأمم المتحدة ، وُجد أن واحدة من كل ثلاث نساء ، ستعرض للضرب والاعتصاب أثناء حياتها. وفي حملتها لوقف العنف ضد المرأة ، قامت منظمة V-Day بالدعوة لحملة (One Billion Rising). وهي أكبر عمل جماعي لإنهاء العنف ضد المرأة في التاريخ البشري. بدأت الحملة ، التي أُطلقت في عيد الحب ٢٠١٢م ، على أنها دعوة للعمل على أساس إحصاءات ، تبعث على الدهول ، بأن ١ من كل ٣ نساء على هذا الكوكب سوف تتعرض للضرب أو الاعتصاب خلال حياتها. ومع عدد سكان العالم البالغ ٧ مليارات ، فإن المحصلة تصل إلى أكثر من مليار من النساء والفتيات. في ١٤ فبراير ٢٠١٣م ، جاء الناس من جميع أنحاء العالم للتعبير معاً عن الغضب ، والإضراب ، والرقص ، والاحتجاج لتحدي الظلم الذي تعانيه النساء ، والمطالبة بإنهاء العنف ضد المرأة. في ١٤ فبراير عام ٢٠١٤م ، ركّزت الحملة على قضية العدالة لجميع الناجين من العنف الجنسي ، وسلّطت الضوء على الإفلات من العقاب ، الذي يحيا عند تقاطع الفقر والعنصرية والحرب ، ونهب البيئة ، والرأسمالية ، والإمبريالية ، والنظام الأبوي. في السنة الثالثة من هذه الحملة ، اختار منسقو الحملة موضوعة «الثورة» كتصعيد للطلب على العدالة ، وللبناء على الجهود الهائلة للمجتمعات في جميع أنحاء العالم ، والتي ركّزت على جذور وأسباب العنف ، كجزء من دعوتهم للعدالة. في ١٤ فبراير ٢٠١٥م ، تقريباً ، تجمّع ملايين النشطاء في أكثر من ٢٠٠ دولة في مديّ ثوري ، لتغيير النموذج ، والمطالبة بالمساءلة والعدالة والتغيير المنهجي. نحن نثور من أجل إظهار أننا مصممون على خلق نوع جديد من الوعي ، حيث سيقاوم العنف ، حتى يصير غير وارد ، في صفحة العالم. في عام ٢٠١٦م ، لا يزال موضوع الثورة حيّاً ؛ مع الدعوة للتركيز على النساء المهّمّشات ، وتسليط الضوء على قضاياهن ، محليّاً وعالميّاً ؛ لإدخال طاقة فنيّة جديدة ؛ لتضخيم الثورة ، على أنها دعوة لتغيير النظام ، وإنهاء العنف ضد النساء والفتيات. لندعو الناس إلى الثورة من أجل الآخرين ، وليس فقط لأنفسنا.

في ١٤ فبراير ٢٠١٣ م ، أقيمت الفعالية في أكثر من ١٦٠ دولة ، من ضمنها السودان. السودان الذي ينصُّ قانونه الجنائي للعام ١٩٩١م على الرجم في حالة الزنا ، والإعدام في حالة اللواط ، لكنه يعتبر الاغتصاب زنا دون رضا المجني عليها وفي حال تقدمت المجني عليها بفتح بلاغ ، يعتبرها القانون أقرت على نفسها ، وثُدان وقتها بالزنا ، أما المُغتصب ، فدائماً ما يُبرأ لعدم وجود نصاب الشهادة.

السودان الذي يعتبر ارتداء البنطلون فعلاً فاضحاً ومُخلاً بالآداب العامة ، كما يُسبب مضايقة للشعور العام. السودان الذي ارتفعت نسبة ختان الإناث فيه لنسبة ٨٦٪ في العام ٢٠١٥م. السودان الذي تسمح قوانينه بزواج القاصرات بدءاً من سن العاشرة.

أُسْتُصِفَت الفعالية من قبل مركز سالمة لدراسات المرأة وجهات أخرى ، وأقيمت في جامعة الأحفاد للبنات ، وفيها عبّرت الفتيات عن مقاومتهن هذه بأسلوب فريد: الرقص.

داست الأقدام الراقصة على تاريخ طويل من البؤس ، دُسن على الخوف ، قلة الحيلة ، لمسات المُتحرشين ، التمييز ، على «لأنك بنت» التي تتبع كل أمر منع واقتصاص من الحياة. دُسن على الهزائم ، وانتصرت الأجساد ، بكلّ قوة ، بكلّ مرح ، بكلّ سخرية ، وبيقين كامل. أؤمن أن القوة التي امتلكنها في تلك الدقائق لها قدرة الدوام أبداً ، فقد أهديتها لحيواتهن ، للقادمات ، لي ، للكون.

يُمكننا محاولة تحرير الجسد عن طريق الوعي ، عن طريق التمرد الفكري ؛ أن نجلس لأيام وسنوات نُفكر عن ماهية أجسادنا ، وابتداع طرق للمقاومة ، مُقسّمين الجسد نفسها. لكن ما يجب فعله حقاً ، ما يأخذ اسم العمل وسمته ، هو جعل الجسد وسيلة لمقاومتنا الأولى. ادفعوا بالجسد إلى أقصى حدودها وطاقتها ، أشركوا الجميع ، الأقدام ، الأيدي ، الأعين ، الأذان ، الصدور والأفخاذ. ارقصوا ، دوروا ، اقفزوا. دعوها تتخطى كل تلك الحواجز الوهميّة. دعوها تزيل كل لا وعيب التصق بها. فإن كانت كل تجربة عميقة تُصاغ بعبارات فيزيولوجيّة مثلما قال «سيوران» ، أليست كل عبارة فيزيولوجيّة هي تجربة عميقة؟

الرقص ، خفة الجسد ، حرّيتها ، مرحها ومُفجّر طاقتها. عرفت كل الثقافات الرقص ، فدّسته وحملته بالمعاني ، بالصلوات ، بالأساطير ، بالحكم والفلسفات.

رقصوا للمطر ، للصيد ، للحصاد ، لجميع طقوس التكريس والعبور ، مثل البلوغ والزواج والميلاد وحتى الموت. جسّد يا أنت قوتك ، أنا-ك الفريضة ، ولترقص يا جسدي ، فالرقص هو التخفّف من كل الأحمال ؛ لحظات من الانخراط الروحي تُحرّك ، تُعيد تعريف القوة ، المقاومة ، المرح ، الخفة ، تُعيد تعريف الحياة. كان يمكن أن افتتح بتسمية هذا المكتوب: أنا جسدي.. أنا امرأة ؛ لكن أليست جسدي وامرأة لهنّ نفس التوقيع: «أنا جسدي.»